منهجية الخطاب الدعوي عند المفسر الإمام محمد متولي الشعراوي

- دراسة تطبيقية-

د. حمو عبد الكريم

جامعة وهران

الكلمات المفتاحية:

الخطاب التفسير، اللغة، الدعوة، الشعراوي، اللفظ، التأويل

مقدمة:

بات تعلم اللغة العربية والتّبحر في علومها ومباحثها شرطا من شروط الخطاب التفسيري، ومن بين العلوم التي يحتاجها المفسر علاوة على اللغة والنحو والتصريف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والقراءات([1])، علم أسباب نزول الآيات ومعرفة المكي والمدني([2])، ومعرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل... وقد اشترط الواحدي(ت: 468ه) معرفة أسلوب المخاطبين وأمثالهم ونوادرهم فقال: «إنّ طريق معرفة تفسير كلام الله تعالى، تعلم النّحو والأدب، فإنهما عمدتاه وإحكام أصولهما، وتتبع مناهج لغات العرب فيما تحويه من الاستعارات الباهرة والأمثال النادرة، والتشبيهات البديعة، والملاحن الغريبة، والدلالة باللفظ اليسير على المعنى الكثير، مما لا يوجد مثله في سائر اللغات»([3]).

إذن فالداعية إلى الله يحتاج إلى خطاب خاص يوصل به المعاني ويبرز الدلالات التي تحدد مقاصد النَّص القرآني في استنباط الأحكام: فقهياً، وتشريعياً، وتربوياً.

وقد تناول هذه المسألة الإمام الشاطبي(ت:790هـ) في الموافقات، حيث أولى عناية كبيرة للمعاني، ورأى أنَّ «المعاني المبثوثة في الخطاب هي المقصود الأعظم، بناء على أنَّ العرب إنَّما كانت عنايتها بالمعاني، وإنَّما أصلحت الألفاظ من أجلها... فاللفظ إنَّما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد والمعنى هو المقصود، ولا أيضا كل المعاني، فإنَّ المعنى الإفرادي قد لا يعبأ به إذا كان المعنى التركيبي مفهوماً دونه... فإذا كان الأمر كذلك فاللازم الاعتناء بفهم معنى الخطاب لأنَّه المقصود والمراد، وعليه ينبني الخطاب ابتداء»([4]).

والمتأمل في– تفسير([5]) الإمام محمد متولي الشعراوي([6]) (ت:1998م) يجده مراعياً التَّدقيق اللغوي للآيات، ومهتماً بمعاني المفردة القرآنية وفي سياقاتها المتنوعة، ولهذا يقول: «فإننا لا بد أنْ نتناول دقة اللفظ، أو دقة التعبير في القرآن الكريم، وكلام الله يجب أنْ يكون في غاية الدقة، بحيث يعبر عن الشّيء تعبيراً كاملاً، فلا تجد حرفاً زائداً بلا معنًا»([7]).

فتفسيره يعد من ضمن التفاسير التي راعت في خطابها مقامات المستمعين وحالاتهم الفكرية والانصاتية، بأسلوب أدبي بسيط وبلغة عربية مهذبة، فهو يتكلم في رواق مثلما كان العلماء القدامى يفعلون، وهو يتحدث إلى جمهوره ليحس بالصلة الحية بينه وبينهم، وبالطبع فتفسيره من طينة التفاسير التي يُسمع لها أكثر من أنْ تُقرأ، وهذا الأسلوب يُغني عن كثير من الجهد بالنسبة للمتعلم، ولكنّه يضع على كاهل المُعلم صعوبته إلاّ أنّ الشعراوي يقوم به بيسر وبلا تكلف، وقد أحاط بمعالم الخطاب الأدبي في تفسيره وأبدع فيها.

وقد صنفه محمد أمين إبراهيم التندي([8]) ضمن قائمة مفسري المدرسة الاجتماعية، وذكر أنّ الشعراوي كثيراً ما يتعرض للنظريات العلمية ليربطها بالقرآن الكريم، مبيناً أنّه لا تناقض مطلقاً بين القرآن الكريم والحقائق العلمية، لكنه يُحذِر من أنْ يُخضع القرآن الكريم للتفسيرات العلمية دائماً، خاصة النظريات العلمية التي قد تتغير من زمان إلى زمان وبالترقي العلمي.

وبالتالي فقد أدرك الشعراوي سر الخطاب الدعوي، كما أعطي للمفردة قيمة وأنّها «أصل في التعبير والوضوح في المعنى والصدق في الدلالة، لأنّ الكلمة إذا تمكنت في موضعها دلت على المعنى كله، فإذا حُشِرت حَشْراً أو قُسرَت قَسْراً دَلّتْ على بعض المعنى، أو ألجأت إلى غيره»([9]). ولكي نباشر الموضوع يجب أنْ نحدد: ما المقصود بالخطاب القرآني؟ وما هي آليات الخطاب الدعوي التي اعتمدها الإمام الشعراوي؟

أولا: مفهوم الخطاب:

الخطاب في اللغة مشتق من لفظة "خَطَبَ"، والخَطْب: سَبَبُ الأمر، نقول: ما خَطْبُك، وخطبتُ على المنبر خُطبة بالضم، وخَاطبه بالكلام مُخاطبة وخطاباً، وخطبت المرأة خِطْبة بالكسر، والخطيب: الخاطب، والخطيبي: الخطبة([10]).

وفي المعجم الوسيط: خاطبه مخاطبة، وخطاباً: كالمه وحادثه، وخاطبه: وَجّه إليه كلاماً([11])، والخطاب الكلام، وفي القرآن: {فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ}([12]).

وجاء في المصباح: "خَاطَبَهُمُخَاطَبَةً وَخِطَابًا، وَهُوَ الْكَلَامُ بَيْنَ مُتَكَلِّمٍ وَسَامِعٍ، وَمِنْهُ اشْتِقَاقُ الْخُطْبَةِ بِضَمِّ الْخَاءِ وَكَسْرِهَاباخْتِلَافِ مَعْنَيَيْنِ، فَيُقَالُ فِي الْمَوْعِظَةِ خَطَبَ الْقَوْمَ وَعَلَيْهِمْ مِنْ بَابقَتَلَ خُطْبَةً بِالضَّمِّ، وَهِيَ فُعْلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ نَحْوُنُسْخَةٍبِمَعْنَىمَنْسُوخَةٍ، وَجَمْعُهَاخُطَبٌ مِثْلُ:غُرْفَةٍ وَغُرَفٍ فَهُوَ خَطِيبٌ وَالْجَمْعُالْخُطَبَاءُ، وَهُوَ خَطِيبُ الْقَوْمِ إذَا كَانَ هُوَ الْمُتَكَلِّمَ عَنْهُمْ"([13]).

وفي المعاجم الأجنبية فإنّ الخطاب هو مصطلح ألسني حديث يعني في الفرنسيةDiscours، وفي الإنجليزية Discourse، وتعني حديث، محاضرة، خطاب، خاطب، حادث، حاضر، ألقى محاضرة، وتحدث إلى"([14]).

أما الخطاب اصطلاحاً فهو مصطلح أوسع وأشمل، ويتحدد معناه المفهومي بناءا على التلفظ أو العلاقة بين طرفين مخاطِب ومُخاطَب. قال ابن الأثير: "والمُخاطبة مُفاعلة من الخطاب والمشاورة، فتقول: خَطَب يخطُبُ خُطبة بالضّم فهو خاطب وخطيب"([15]). وقد أعطى أبو البقاء الكفوي(ت:1683م) في الكليات تصوراً شاملاً حدد فيه الإطار العام لهذا المفهوم فقال: "الخطاب هو اللَّفْظُ الْمُتَوَاضَعُ عَلَيْهِ المقصود بِهِ إفْهَامُ مَنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِفَهْمِهِ، احْتِرَاز "باللَّفْظُ"عن الْحَرَكَاتِ وَالْإِشَارَاتِ الْمُفْهِمَةِ بالمواضعة، و"بالتواضع عليه "عَنِ الْأَلْفَاظِ الْمُهْمَلَةِ، وبـ "الْمَقْصُودُ بِهَ الْإِفْهَامُ"عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع، فإنّه لا يسمى خطاباً، وبقوله: "لِمَنْ هُو مُتَهَيء لِفَهْمِه" عن الكلام لمن لا يفهم كالنّائم، والكلام يطلق على العبارة الدالة بالوضع وعلى مدلولها القائم بالنّفس، فالخطاب إمَّا الكلام اللفظي أو الكلام النفسي الموجه نحو الغير للأفهام"([16]).

فهذا التعريف ذو طابع شمولي، يكون الخطاب فيه وحدة تواصلية، مجموعة بظروف إنتاج معينة، فالمخاطب لا بد أنْ يكون فاهماً معنى الخطاب، والخطاب يجب أنْ يكون مما تواضع النّاس عليه وعرفوه، أمَّا المخاطب أو المستمع لا بد أنْ يكون متهيأ للفهم مستجيبا له. "فالخطاب يبنى على موضوع، وهذا الموضوع لابد أنْ يكون مفهوماً، وإلاّ بطل أنْ يكون خطابا، إذاً فهناك بنية متعالقة تشمل الخطاب القائم على الموضوع، هذه البنية تؤدي إلى الفهم وهو ما يؤلف حوار، والحوارية في مفهومها الضيق أحد أشكال تكوين الخطاب، وهي تمثل حياة النصوص وعلاقاتها في داخل الخطاب"([17]).

ثانياً: أنواع الخطاب:

لا يمكننا حصر أنواع الخطابات لأنها تتنوع وتختلف باختلاف مرجعيتها، ولقد قسمها الباحث منذر عياشي إلى ثلاثة أنواع؛ يأتي على رأسها الخطاب القرآني وهو خطاب إلهي، مطلق ولا نهائي في دوالّه ومدلولاته {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}([18])، والنوع الثاني:ويمكن تسميته "الخطاب الإيصالي" ونماذجه متعددة سياسية، وإرشادية وعظيه وقضائية وإقناعيه، واجتماعية، وإعلامية إلى آخره.والنوع الثالث: يمكن تسميته الخطاب الإبداعي (الشعري) ونماذجه متعددة هي الأخرى، ولكن يتميز عن الأول بأنّه خطاب يقوم على مبدأ الأجناس الأدبية"([19]).

ينما صنف الجابري الخطاب إلى أربعة أصناف:أولاً:الخطاب النهضوي الذي يدور في فلك النهضة عامة والتجديد الفكري والثقافي خاصة، وثانياًالخطاب السياسي وتمحور حول العلمانية وما يرتبط بها والديمقراطية وإشكاليتها، وثالثاً:الخطاب القومي الذي يتناول "التلازم الضروري" – الإشكالي الذي يقيمه الفكر العربي بين الوحدة والاشتراكية من جهة وبينهما وبين تحرير فلسطين من جهة ثانية، ويأتي في المقام الرابع: الخطاب الفلسفي ليعود إلى صلب الإشكالية العامة للخطاب العربي الحديث والمعاصر، وإشكالية الأصالة والمعاصرة"([20]).

ثالثاً:خاصية الخطاب القرآني:

إنّ الخطاب القرآني خطاب إلهي رباني، متفرد عن غيره من الخطابات وفي كل مستوياته الصوتية، والصرفية والنحوية المعجمية، والتركيبية. فأصواته منسجمة متماسكة، وألفاظه ذات دلالة ومقصد، وأسلوبه معجز في لفظه ونظمه([21])، وليس لأحد أنْ يأتي ولا بآية من مثله، قال تعالى: {وَإِن كُنتُمْفِيرَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍمِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِإِنْ كُنتُمْصَادِقِينَ}([22]).

فالخطاب القرآني لا نهائي من جانب الدال أو المدلول أو التفسير، وهو "خطاب يميل إلى مرجعية ثلاثية فهناك مرجعية الدال، ويكون النّص على مثال مرسله، وهناك مرجعية المدلول ويكون النص فيها على مثال متلقيه، وهناك أخيراً مرجعية النَّص نفسه على نفسه، ويكون النَّص فيها دالاً ومدلولاً خالقاً لزمنه الخاص، ودائراً مع زمن المتلقين في كل العصور، وسمة القراءة في كل ذلك أنَّ كل واحدة من هذه المرجعيات تستقل بذاتها وتطلب الأخرى في الوقت ذاته"([23]).

إنّه لا يمكننا فهم الخطاب القرآني من خلال مستوى واحد كالمستوى الصوتي أو الصرفي أو النحوي أو الدلالي أو المعجمي أو غيره.. ولكن يفهم الخطابفي إطاره الشمولي العام، مستعينين بمباحث العلوم الإسلامية والانسانية التي تشمل: التفسير، أصول الفقه، العقيدة، المنطق، الفلسفة... كما أنّ الدين واللغة في النص القرآني، "شّكل روحي واحد، أو بنية روحية واحدة، لهذا يتكون من الغامض الذي لا يمكن أنْ يعرفه الإنسان، ومن الواضح الذي يعرف مباشرة من ظاهر اللفظ، فهو أفق مفتوح، لكن على الغيب"([24]).وبالتاليفالخطاب القرآني خطاب في العربية، وقد كثرت حوله الشّروح والحواشي، وتعددت حوله القراءات والتفاسير بتعدد وجهات الناظرين فيه، وذلك انطلاقاً من خاصية أسلوبه المعجز، ومن بين هذه الخصائص ما يلي:

1- دقة اللفظ القرآني:

فالدقة في اختيار اللفظ المناسب هو من خاصية القرآن الكريم، مراعياً أبعادها الصوتية والنحوية والصرفية والبيانية، ثم في توظيفها بعد ذلك في السياق التركيبي، ولذا فالكلمة القرآنية في هذا الإطار تتمتع بكل عناية واهتمام منذ لحظة الانتقاء إلى لحظة التوظيف النّصي، ولقد انتبه الشعراوي([25]) إلى هذا السّر، وأعطى للمفردة حقها من الدراسة والتحليل.

2- قوة التصوير:

يعتمد الخطاب القرآني على خاصة التصوير، وهو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يُعبر بالصورة الحسية المتخيلة عن المعنى الذهني و الحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وقد استطاعَ الشعراوي أن يُقرب الصُورة البيانية بمثال حي مجسد ليبسطه لطوائف النّاس، ويتأكد عند المتعلمين. إذْ كان «يلجأ إلى المشاهد الملموسة ليكون الاعتراف بواقعية المشاهدة دليلاً على صحة ما جاء التمثيل من أجله»([26]).

3- مراعاة أحوال جميع المخاطبين وطبقاتهم:

فإنَّ من مظاهر إعجاز النَّظم القرآني مراعاته لأحوال جميع المخاطبين، وإحاطته بالحالات النفسية لكل مخاطب، ومخاطبته أيضا للملكات الإنسانية الموجودة داخله في آنٍ واحد، وهو ما يُسمى في علم البلاغة بـ: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال". وقد ذكر عبد العظيم الزرقاني(ت: 1367ه) في مناهل العرفان: «أنَّ الله هو القادر وحده على تضمين كلامه كل المناسبات التي اقتضتها تلك الأحوال الكثيرة التي لم يحط ولن يحيط بها سواه، وأنت خبير بأنَّ القرآن هو كتاب الساعة... فلا غرو أنْ يضمنه مُنزله كل ما تحتاج إليه الأمم على اختلاف أجيالها من المناسبات الملائمة لأحوالهم، وليس ذلك في قدرة أحد إلاَّ العليم بأسرار الخلق وخفيات السموات والأرض»([27]).

رابعاً: معالم الخطاب الدعوي في تفسير محمد متولي الشعراوي:

عمل الشعراوي طيلة حياته وهو يدعو الناس إلى محبة القرآن الكريم والعمل به، وظل يقرأ ويحقق ويفكر ويستوعب قبل أنْ يخرج إلى الناس وينقل لهم عصارة فكره؛ خمسين عاما من الجهد والمذاكرة المستمرة،حتى أوجد لنفسه مكاناً ومكانةفي وسط المسلمين في مصر وخارجها، وتُصْبح له هذه الجاذبية المثيرة التي تجعل مستمعيه يطربون ويهتزون نشوة وانتعاشا، وهو بعمق تحليله وبرجاحة فكره ونبرة صوته، يملأ عقول وقلوب وأفئدة محبيه، حتى إنك إذا سمعت منهم صيحات التكبير الله أكبر الله أكبر.. تدرك أنّ الفهم قد وصل، وأنّ الخطاب سلك مسلكه وأدى مؤداه. ومن بين ركائز الخطاب الدعوي عند الشعراوي ما يلي:

1-التمثيلالكاشف:

استخدم الشعراوي التمثيل من الواقع المعاش، وبهأَوْصَل مدول الآيات ومعانيها، والتمثيل والتصوير سمة من سمات الأداء الخطاب الدعوي، ومن هنا كانت خاصية خطابه الوضوحلأنه غاية المتكلم من الكلام، وبه يدرك السياق، لأنَّ الذي يلغز في قوله لا يفهمه أحد؛ بل يحاول أنْ يستطيل بما يلغز مدعيا أنه بذلك يصعد مراقي الفكر، وما علِمَأنّه أَوْصد الأبواب بينه وبين قارئيه فما أفاد أو استفاد.

ويستعرض الشعراوي الآية التالية ويقدم الصورة إجمالاً للمقارنة والموازنة بين أهل النار وأهل الجنة، يقول الله في أهل النار: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ}([28]).

فالآية تعرض لنا سورة المكذبين بالله وجزائهم. يقول الشعراوي: «فهم لن يدخلوا الجنة وعلى ذلك فقد سلب منهم نفعاً، ولا يتوقف الأمر على ذلك، ولكنهم يدخلون النار، إذن فهنا أمران: سلب النافع وهو دخولهم الجنة، إنه سبحانه حرمهم ومنعهم ذلك النعيم، وذلك جزاء إجرامهم. وبعد ذلك كان إدخالهم النار، وفي قول الحق: {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}([29])، فكأنَّ الإجرام كان سبباً في ألا يدخلوا الجنّة، والظلم كان سبباً في أنْ يكون من فوقهم غواش، لهم من جهنم مهاد، وهم في النَّار يحيطهم سرداقها»([30]). فهذه الصورة العجيبة توحي بكم هائل من الدلالات والصور والمشاهدات، وكأنَّ القاري والسامع تتكشف أمامه صورة للمُكذب العنيد ومصيره المنتظر. وهكذا الشعراوي يتبع المفردة تلوى الأخرى كاشفا عن مدلولها ومستنطقا دوراها الإيحائي التبليغي.

2- مزج الدعوة الإسلامية بالأدب:

جعل الشعراوي من الدعوة أدباً وجعل الأدب وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية؛ أي جعل من الأديب داعية ومن الداعية أديباً، فخرج من الدعوة التقليدية الوعظية التي تعتمد على الأداء الصوتي والقوالب والصيغ المحفوظة إلى حد الاندماج بينه وبين مستمعيه، وذلك عن طريق التواصل الشفوي والوجداني، لأنه امتلك ناصية الكلمة العربية وامتلك القدرة على الارتقاء والتحليق بمعطيات الروح المتحررة،وامتلاك ذلك كله هو معيار التمايز بين دعوات الفقهاء ودعوات الأدباء؛ بل هو معيار التوفيق ونجاح الداعية، فالأولون يخاطبون في المتلقي عقله لا غير، والعقل قد يصحوا وقد ينام؛ أما الآخرون فهم يخاطبون في المتلقي عقله ووجدانه، وبين حالتي الخطاب لا بد أن يضفروا به وأن يستولوا عليه، وهذا هو الداعية الموفق وهذه هي الدعوة الناجحة.

وقد سُئل الشعراوي يوما: هل تحتاج الدعوة الإسلامية إلى الأديب الداعية أم الداعية الأديب؟ فأجاب: الدعوة الإسلامية في حاجة إلى الداعية الأديب لأنّه يميل الناس إلى الدعوة، ويستحسن عرض المطلوب الديني بالأدب المستميل المطرب، المعجب، المقنع والممتع([31]).

ومن النماذج التفسيرية الأدبية التي ارتفع بها في الأسلوب، من مرتبة الإقناع إلى مرتبة الإبداع تفسير قوله تعالى:{وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ}([32])، فكأن الإنسان قد ملك المال وبعد ذلك "آتاه". وعندما تقول: "آتَيْت" فهي تعني أعطيت، وهي تختلف عن "أَتَيْت" التي تعني "جِئْت". ويمكن أنْ نفهمه على أكثر من معنى: يمكننا أنْ نفهمها على أنه يعطي المال وهو يحب المال، ويحتمل أن نفهمها على أنه يؤتي المال لأنه يحب أن يعطي مما يحبه من المال. ويمكن أن تُصَعِّد المعنى فيصير "وآتى المال على حب الإيتاء؛ أي يُحب الإعطاء وترتاح نفسه للإعطاء، ومن الممكن تصعيدها تصعيدا آخر يشمل كل ما سبق فيصبح المعنى: وآتى المال على حب الله الذي شرع له ذلك، وكل هذه المعاني محتملة. إذنالآية تعطينا إما منزلة إخراجه من المِلك؛ وإما منزلة إخراجه من القلب الذي يحبه([33]).

ففي النفس الإنسانية ملكات متعددة، وهذه الملكات المتعددة متشابكة تشابكا دقيقا فتستطيع حين تخاطب ملكة سمعية أنْ تحرك مواجيد وجدانية، فإنْ لم يكن العالم بالملكات عليما بها لما أمكن أنْ يجيء المنطق موافقا لملكة سمعية، وموافقا لملكات وجدانية قد تتأتى بها طبيعة تداعى المعاني، ومعنى "تداعى المعاني" أنّ الإنسان يستقبل معنى من المعاني فيشير ذلك المعنى إلى معان خبيئة يستدعيها لتحضر في الذهن([34]). فعندما يذكر الإنسان بعض الكلمات تتداعى المعاني التي ترتبط بها أو تستثيرها هذه الكلمة أو تلك في نفسه، حيث يستدعي معنى معناً آخر لتتصل المعاني ببعضها البعض كسلسلة مترابطة فيما بينها، فتكون صورة ذهنية واضحة المعالم. وهذا التحليل أنبأنا بأنّ الشعراوي يمتلك من مفتاح اللغة والبيان ما يأهله لتبليغ مرادات الله تعالى.

3- حسن العرضوالتقديم:

ما ميز خطاب الشعراوي هو قدرته الفائقة في إقناع القارئ والسّامع، مثال ذلك قوله تعالى:{ثُمَّ آتَيْنَا مُوْسَى الْكِتَابَ}([35])،فنحن إذا سمعنا بكلمة "ثُم" نعلم أنها من حروف العطف، وإيتاء موسى الكتاب كان قبل أن يأتي قوله: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} فالتوارة جاءت ثم الإنجيل، ثم جاء القرآن ككتاب خاتم. ويتساءل الشيخ: فكيف جاءت العبارة هنا بـ "ثم"؟ مع أن إتيان موسى الكتاب جاء قبل مجيء قوله الحق:{قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}([36])، فوظيفة "ثّم" لترتيب أفعال وأحداث، وهنا جاءت "ثّم" لترتيب أخبار؛ إذن، فأنت تقوم بترتيب أخبار. وتتصاعد فيها، وتترقى، ولذلك قال الشاعر العربي:

قُل لِمَنْ سَادَ ثُم سَادَ أبوهُ ثُم قَدْ سَادَ قبلَ ذَلكَ جَدُّه([37])

فالسيادة جاءت أولاً للجد، ثم جاءت للأب، ثم انتقلت للابن. و "ثُمَّ" في هذه الحالة ليست لترتيب الأحداث وإنَّما جاءت للترتيب الإخباري([38]). وبالتالي فعرض الشعراوي كان مبسطاً واضحاًمعتمداً على العرض الأدبي السهل الخال من التعقيد، والمشيد بالشاهد الشعري الذي جاء ليؤكد مضمون ما يريد دون تكلف.

فهو لا يترك القضية حتى يطرقها من كل جانب ويحيط بأطرافها ويلم ما يثور حولها من فرعيات ويناقش كل ذلك في موضوعية مقنعة فتتسلسل له القضية ويصل القارئ إلى منتهى الاقتناع بها.فهو يتحرك بيديه ويميل بمرفقيه ويعصب ملامحه ويضحك أسنانه، ويشير بكفه ويضرب على فخذه؛ كما أنأداؤه الانفعالي والصوتي واضح الدلالة، فكل انفعالاته تتركز على نغمات صوته الذي يرتفع وينخفض ويخشن ويرق ويغلظ وينعم...

4- براعة الاستطراد:

والاستطراد سمة من سمات المنهج التبليغي الدعوي، إذ الشعراوي في استطراداته يوثق كل ما صلة بالموضوع، ويلملم المتفرقات التي تجعل من الجزئيات كلا متكاملا فنفهم الصورة كاملة من خلال جزئياتها و لم يأتي الاستطراد عبثا؛ وإنما قصد إليه قصداً يقول الإمام في تفسير قوله: {يَقْدُم قَوْمه يَوْم الْقِيَامَة فَأَوْرَدَهُمْ النَّار}([39])،وكلمة "يَقْدُم" هي من مادة "القَافْ" و"الدَالْ" و"المِيْم". وعند استخدام هذه المادة في التعبير قولاً أو كتابة، فهي تدل على الإقبال بالمواجهة؛ فيقال:"قَدِمَ فُلان" دليل إقباله عليك مواجهة. وإذا قيل: "أَقْبَل فُلان" فهذا يعني الإقبال بشيءٍ من العزم. و"قَدِم القَوم يَقْدُمُهُم"؛ أي: أنهم يتقدمون في اتجاه واحد، ومن يقودهم يتقدمهم.ويأتي القرآن بآيات ويُبيِّنها، مثل قول الحق: {فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِين ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْل جَهَنَّم جِثِيًّا}([40])، ويقول الحق:{وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا}([41])، و لم يقل الحق سبحانه: "وإنْ منهم إلاّ واردُها". وإنما قال:{وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا}. وبذلك عمَّم الخطاب للكل، أو أنه يستحضر الكفار ويترك المؤمنين بمعزل. وهنا يقول الحق عن قوم فرعون:{فَأَوْرَدَهُمْ النَّار وَبِئْسَ الْوِرْد الْمَوْرُود}([42])؛ أي إنهم يشعرون بالبؤس لحظة أن يروا ماء جهنم ويشربون منه.

فوحدة الموضوع عند الشعراوي متماسكة،لكي لا يكاد أمام القارئ يفلت منه شيء، فهو يأتي بلفظ قرآني في أية كريمة إلا ذكر مثيله في الآيات الأخرى رابطا بين الآيات بسلسلة وثيقة من المعاني فيقدم لسامعه تفسيرا رائعاً ثمين الدرر...إنه بذل فوق المستطاع حتى جذب إلى روضة القرآن نفوسا لم تكن تفكر في أن تجلس مجلس المستفيد من كتاب الله، فإذا انجذبت إلى تفسير الشعراوي هذا الانجذاب فمعنى ذلك أنَّ الرجل قد امتلك من أزمة الإمتاع وأعنة التوجيه ما جعل تأثيره ذا سطوع نفاذ.

5- مزج العلم بالأدب:

فالشعراوي جعل من الأدب علماً ومن العلم أدباً، فالعلم يخاطب العقل والأديب يخاطب العاطفة أو يخاطبهما معا؛ فالعالم يلتزم بالتسلسل المنطقي والأديب يلتزم بالترتيب الوجداني دون مراعاة للنسق المنطقي، والعالم يلتزم بالموضوعية والأديب ينحو إلى التلقائية، والسّياق في العلم يرتبط بنتائج مَعْلَميه؛ أما السياق في الأدب فإنه يرتبط بالأديب الذي يترجم عن الواقع والمجتمع من خلال نفسه ومشاعره. مثال عن ذلك قوله تعالى في سورة الكهف:{لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}([43])؛فلقد تنوعت أقوال المفسرين في أسباب التقليب، وعدد مراته، وكيفيته، ومصدره، وتعليل ذلكهو أنَّ تقلبهم كان لجهة اليمين واليسار، والذي يقلبهم هو الله سبحانه، وأنَّ التقليب كان مرتين في كل سنة أو في مدة رقدتهم كلها، ومن المفسرين الطبري الذي يرى أنّتقليب هؤلاء الفتية في رقدتهم مرة للجنب الأيمن ومرة للجنب الأيسر([44]).

وفي تفسير الشعراوي نجده يقول: "لو أتيح لك النظر إليهم لخُيِّل إليك أنهم أيقاظٌ غير نائمين، ذلك لأنَّ ربهم حفظهم على حال اليقظة وعلى هيئتها، ثم أظهر فيهم آية أخرى من الإعجاز بأنْ يُقلِّبهم في نومهم مرة ناحية اليمين، وأخرى

ناحية الشمال، لتظلّ أجسامهم على حالها، ولا تأكلها الأرض، ومعلوم أنّ الإنسان إذا قُدِّر له أنْ ينام فترة طويلة على سرير المرض يُصَاب بمرض آخر يُسمُّونه قرحة الفراش.. وقد جعل لهم هذا التقليب ذات اليمين وذات الشمال على هيئة الإيقاظ"([45]).وفي العصر الحديث والاكتشافات المعاصرة رأى الباحثون أنّه لولا هذا التقليب لما بقي هذا الجسم يتلقى إمداداته من الدم بأوعية واسعة، بل لمات من مرض خطير اسمه قرحة السرير.وفي بعض المستشفيات الغربية يضعون للمريض أَسِرّة تهتز بشكل دائم بفعل محرك كهربائي من أجل أن تقي المريض قرحة السرير([46]).

6- الأسلوب المطبوع:

الأسلوب المطبوع هو الذي يترك في النفس أثرا، لأنّ الجماهير تملك أدوات الحس التي تميز به الصدق والكذب، وتملك القدرة على التفرقة بين الكلمة الصادقة والمطبوعة والكلمة الزائفة المصنوعة.مثال عن ذلك في تفسير قوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ}([47])؛والخطاب مُوجَّه إلى محمد صلى الله عليه وسلم؛ أي: أنك يا محمد لم تَكُنْ معهم حين قالوا: {إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا}([48])؛فالحق أخبرك بأنباء لم تكنحاضراً لأحداثها، والغيب هو ما غاب عنك، و لم يَغِبْ عن غيرك، وهو غيب نسبيّ؛ وهناك الغيب المُطْلق، وهو الذي يغيب عنك وعن أمثالك من البشر.والغيب كما نعلم له ثلاثة حواجز: الأول: هو حاجز الزمن الماضي الذي لم تشهده؛ أو حاجز الزمن المستقبل الذي لم يَأْتِ بَعْد. والثاني: هو حاجز المكان. والثالث: هو حاجز الحاضر، بمعنى أن هناك أشياء تحدثُ في مكان أنت لا توجد فيه، فلا تعرف من أحداثه شيئاً([49]).

فجل القصص القرآني يترك في النفس انطباعاً حقيقياً، لأنّ مشاهد وحركات كل قصة حقيقة، تنغرس في نفس المؤمن ويعتبرُ بها ويخشع لها، وقد برع الشعراوي في هذا الجانب، إذْ تعددت التأويلات والتفسيرات في الآية الواحدة، وهذا بسبب الأسلوب الانطباعي الذي ترك أثره في نفس المُفسر وفي خلجاته.

7- أسلوبه بين الفصحى والعامية:

واضح من تفسير الشعراوي أنّه مزج بين اللغة الفصحى اللهجة المصرية، بغية منهايصال المعنى لعموم الناس والمنصتين، وقد عبر بهذا الرأي فقال "وَجَدْت نفسي أُحِب أنْ أقول ما يُمتع النّاس فكتبت الشّعر العامي والزّجل، ثُم بدأت انتقلُ إلى الشّعر الفصيح، فمن يكتب بالعامية معذور، لأنّه لم يتعلم، ولذلك يقول الزّجل والشّعر العامي، لكني أكتب بها، ولا بد أنْأكتُب بالفصحى"([50]).

والملاحظ أنه غلبت عليه مصريته التي تميل إلى المرح والدعابة، ويندر أنْ خلا حديث للشيخ من دعابة أو طرفة أو ملحة أو نادرة يشيع جوا من الألفة والمودة بينه وبين جمهوره، وتخفف من جفاف العلم ودسامة الحديث، وتربط بينه وبين الناس برباط إنسان حميم. وهو بهذا الطرح يصعد من أسلوب الاقتراب اللغوي إلى المعنى الذي تضمه العبارة؛ ثم يبدأ صعوده من المعاني حتى ينتهي إلى ذروة جديدة، ومن يسمع لدرسه يحس بخشوع وبحرارة ايمانية، بالإضافة الى الاصطفاءات الروحية التي يكشفها في أحاديثه...

الخاتمة:

استطاع الشعراوي بخطابه الدعوي البسيط أن يجمع صفوف المسلمين حول مائدة القرآن الكريم في جو إيماني صافٍ، وبمنطق متسلسل، وبأسلوب رزين، مازجاً حديثه بين اللغة العربية واللهجة المصرية، ومراعيا مقامات المخاطبين وحالاتهم الفكرية والثقافية، فتجد الأمي والفلاح والطبيب والأستاذ.. كلهم ينصتون إليه وينهلون من معارفه، ولا يكتفي بالحديث بل إنّ كل جسمه كله يتحرك، فذراعه ورأسه وجسمه ينساب مع الكلمات، بحيث تُسهم هذه الحركات والسكنات في التأثير على مستمعيه، كما يؤثر الممثل في متفرجيه، وما صيحات الله أكبر الله أكبر إلا دليل

على أنهم أدركوا مقصود الآية وفهموا حكم الشارع منها، وبالتالي استحق الشعراوي أن يوصف "إماما للدعاة" في العالم العربي والإسلامي اعترافا لما قدمه لهذه الأمة.

هوامش البحث:

[1]– جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحق: مركز الدارسات الإسلامية، السعودية،1209/2

[2]–الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984،13/1.

[3]– أبو الحسن أحمد الواحدي، التفسير البسيط،تحق: صالح بن عبد اللهالرياض، السعودية، 22/1.

[4]– أبو اسحاق الشاطبي،الموافقات، دار ابن القيم، دار بن عفان، 2003، 139/2

[5]– محمد متولي الشعراوي،تفسير الشعراوي، تحق: أحمد عمر هاشم، دار أخبار اليوم، مصر،1991.

[6]– فهو السّيد الشريف محمد بن السيد متولي الشعراوي الحسيني نسباً، والدته اسمها حبيبة ينتهي نسبها من ناحية والدها إلى الإمام الحسين بن على كرم الله وجهه، ولد محمد متولي الشعراوي يوم الأحد17 من ربيع الثاني سنة 1329ه، الموافق لـ15أبريل عام 1911م بقرية دقادوس مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية، ينظر:الشعراوي أنا من سلالة أهل البيت، سعد أبو العينين، ط4، 1995، مطابع القاهرة، ص 6–10.

[7]– محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن، دار أخبار اليوم، مصر، ط1، 1993، 46/1.

[8]–محمد أمين إبراهيم التندي أضواء على خواطر الشيخ الشعراوي ومنهجه في تفسير القرآن الكريم، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، ط1، 1990.

[9]– أحمد حسن الزيات،دفاع عن البلاغة، مطبعة النهضة، مصر،1967، ص4.

[10]– الجوهري، الصحاح،تحق: أحمدعبدالغفورعطار،دارالعلمللملاين،بيروت،لبنان،ط4، 1990، ص327.

[11]– مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة، مطبعة مصر، 1960، 116/1 مادة (خطب).

[12]– سورة ص، الآية:23.

[13]–أحمد علي الفيومي، مصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تحق: يحي مراد، مؤسسة المختار، ط1، مصر، 2008، ص106.

[14]– الياس انطون الياس، قاموس الياس العصري،دار الجليل، بيروت،1972، ص191.

[15]– المبارك بن محمد الجزري بن الأثير، النهاية في غريب الحديث، دار ابن الجوزي، ص 270، مادة (خطب)

[16]– أبو البقاء الحسينيالكفوي، الكليات، تحق: عدنان شرف، محمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، 1982، ص 286.

[17]– فرحان بدري الحربي، الأسلوبية والنقد العربي الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر2003، ص 44.

[18]–سورةالشورى،الآية:11.

[19]– منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق، ط1،1990، ص215.

[20]– محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط5، 1994، ص 16.

[21]– بكري شيخ أمين، التعبير الفني القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1994، ص 183.

[22]– سورة البقرة، الأية:23.

[23]– منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، ص 220.

[24]– أدونيس، النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب، بيروت، بدون سنة أو طبعة، ص34.

[25]– الشعراوي، تفسير الشعراوي، 6021/10.

[26]– عبد الوارث حداد، مع بيان الشيخ الشعراوي، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، عدد 3 مارس 1982.ص 12.

[27]– عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1995، 330/2.

[28]– سورة الأعراف، الآية:40.

[29]– سورة الأعراف، الآية:41.

[30]– الشعراوي، تفسير الشعراوي،4138/7–4139.

[31]– الشعراوي، مجلة الأدب الإسلامي، العدد1، ربيع الأول 1417هـــ، مصر، ص 62.

[32]– سورة البقرة، الآية:177.

[33]– الشعراوي، تفسير الشعراوي، 1610/1.

[34]– المرجع السابق، 1609/1.

[35]– سورة الأنعام، الآية:154.

[36]– سورة الأنعام، الآية:151.

[37]– ديوان أبي نواس برواية الصولي، تحقيق، بهجة الحديثي، دار الرسالة، بغداد، 1980، ص 380.

[38]– الشعراوي، تفسير الشعراوي،7 /4004

[39]– سورة هود، الآية:98.

[40]– سورة مريم، الآية:68.

[41]– سورة مريم، الآية:71.

[42]– سورة هود، الآية:98.

[43]– سورة الكهف، الآية:18.

[44]– الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار ابن تيمية، دت، 194/8.

[45]– الشعراوي، تفسير الشعراوي،8860/14.

[46]–محمد راتب النابلسي، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم،http://nabulsi.com2003–11–22

[47]– سورة يوسف، الآية:102.

[48]– سورة يوسف، الآية:08.

[49]– الشعراوي، تفسير الشعراوي، 7097.

[50]– محمد متولي الشعراوي، سيرة الشعراوي، مجلة الأدب الإسلامي، العدد11، مصر، 1999، ص 59.